الإبداع الشعري في ديوان العشماوي

نقوش على واجهة القرن الخامس عشر الهجري

عبد الله بن علي الأنصاري - السعودية

لم أكن من محبي الشعر ولا قرائه ولا المستمعين إليه، بل كنت أرى أن الشعر مضر بالأمة العربية على طريقة أصحاب الغذاء عندما يقولون «مضر بالصحة». وعندما ركبت مع صاحبي ذات يوم سيارته سمعت شريط شعر فقلت له: يا أخي، لا أحب الشعر فالشعر أحلام وأوهام، والأمة العربية شبعت من الأحلام والأوهام. قال لي: أطلب منك الاستماع هذه المرة لهذا الشريط ثم أترك لك الحكم، فرضيت بما قال.

كان إلقاء رائعا وصوتا جميلا يأسر القلب. يا إلهي: أهذا هو الشعر الذي يقولون؟! وسرحت مع الشاعر ومع القصائد الرائعة ومع الإلقاء الأروع، شاعر يطرب ويبث في النفس الحزن والأمل، يكثر من نداء أمة الإسلام.. يردد في معظم قصائده -يا أمتي- يا أمة الإسلام - يا أمة الحق... نداءات رائعة...هنا مد صاحبي يده لإغلاق آلة التسجيل فصرخت به: لا.. دعها، قال لي ضاحكا: هل أعجبك الشعر؟ قلت له: ليس هذا بالشعر، هذا سحر، هذا صعود بالروح إلى الأعلى!!. وتحدث لي صاحبي عن هذا الشاعر الذي استطاع في لحظة واحدة أن يجعلني أحب الشعر حبا كبيرا. إنه عبد الرحمن العشماوي.. شاعر إسلامي سعودي يتألق..يبدع، يلقي الشعر فيأسر القلب، المعاني راقية، والعبارات جميلة، والصور الشعرية ممتعة.. عبدالرحمن العشماوي صوت شعري متميز في هذا العصر.. وأدخلني صاحبي إلى عالم الشعر العشماوي البديع. فصاحبي لا يفوته ديوان شعر لهذا الشاعر، ولا شريط كاسيت أو فيديو ولا قصيدة تنشر في صحيفة أو مجلة، ولا لقاء يجري مع العشماوي في الصحف أو التلفزيون أو الفضائيات. نعم أدخلني صاحبي إلى عالم العشماوي وأهداني ديوانه يا أمة الإسلام. فما أعظم الهدية! عشرات المرات قرأته، وحفظت معظم قصائده.

إنه ديوان أمة الإسلام...وبدأت أعتني بالشعر الإسلامي وتابعت بعض أعداد مجلة الأدب الإسلامي.. وكتبت بعض الانطباعات عن ديوان نقوش على واجهة القرن الخامس عشر الهجري. الذي أهداني إياه صاحبي المحب للعشماوي الشاعر الإسلامي الكبير.

صمت هذا الزمان نطق مبين
حين يقسو على الفتى ويلين
تتوالى الأيام تحصد أجيالا
وتفنى معاقل وحصون

هكذا يبدأ الديوان، بأبيات رقيقة معبرة عن الزمان، ومادام الديوان نقوشا على واجهة القرن الخامس عشر الهجري. فالأنسب أن يتحدث عن الزمان. نعم الزمان الذي ندور في فلكه في هذه الحياة إلى أن نفنى ويأتي غيرنا:

نحن نسعى إلى الرغائب سعيا
وبنا للفناء تجري السنون؟

إنمـــا الـعـمـر مـركـب يـطـلـب
الـنـاس عـلـيـه المـنـى وفـيـه المـنـون
سـنـوات مـضـت ومـــازال قـوم
في مـتـاهـاتـهـم ومـــرت قـــرون.

في هذا الديوان يجد القارئ قصيدة عنوانها «قضي الأمر» أظن الشاعر كتبها حينما كانت تلك الزيارة المشؤومة لأول رئيس عربي إلى القدس مطلعها:

كـان غـنـمـا فـكـيـف أصـبـح غـرمـا
وشـفـاء فـكـيـف أصـبـح سـقـمـا
أيـهـا المـقـتـفـي طـريـق الأعـــادي
ورمـــا قـد رأيـتـه لـيـس شـحـمـا

ومنها:

أيـهـا الـلاهـثـون خـلـف الأعـــادي
هـل سـتـبـنـون أم تـريـدون هـدمـا
كـم رفـعـتـم مـن الـشـعـارات لـكـن
لم تـزل تـلـكـم الـشـعـارات وهـمـا
الـشـعـارات لا تـوحـد صـفـا
والخـلافـات لا تحـقـق حـلـمـا

الميزة التي وجدتها في شعر شاعرنا الإسلامي الكبير عبد الرحمن العشماوي صدق التعبير، وإشراق الكلمة، وشيوع الحكمة، والانفراد بروح شعرية خاصة تجعله مختلفا عن غيره، وتدعوك إلى الإعجاب به حتى وإن اختلفت معه أحيانا.

وقد جمعني صاحبي الذي أدخلني إلى عالم العشماوي الشعري ببعض الحداثيين الذين تخالف مدرستهم مدرسة العشماوي الشعرية،فوجدتهم يحترمونه جدا، ويعترفون بإبداعه الشعري رغم الاختلاف بينهم وبينه، بل إن أحدهم قال: أنا دائما أردد قول العشماوي:

تـرى الـعـيـن مـالا يـريـد الـفـؤاد
ويـبـغـي الـفـؤاد الـذي لا تـرى

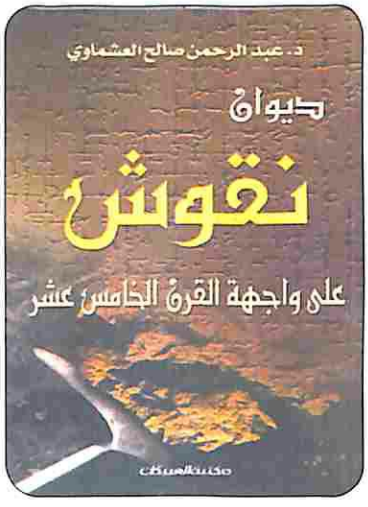

يـريـد الـفـؤاد مـكـان الـثـريـا
ولا تـلـمـح الـعـيـن إلا الـثـرى
ألا أيـهـا الـقـلـب هـذا زمـان
يـبـاع الـكـريـم ولا يـشـتـرى

نعم، الشاعر العشماوي يعجبك ويطربك، وهو لا يرضيك دائما، بل ربما كان سببا في إغضابك، ولكنه مع ذلك يظل ينال منك الإعجاب، في ديوان «نقوش».. قصيدة عن زلزال «ذمار» الذي وقع في اليمن قبل عشرين عاما تقريبا مطلعها:

بمـن ألـوذ ومـن أشـكـو لـه حـالـي
سـواك يـا ربُ في حـلـي وتـرحـالـي

أوغلت في درب أحلامي فكم تعبت
رجلي، وكم شكت الأحلام إيغالي
بنيت لي في دروب العمر أروقة
من الخيالات لم تخطر على بال
ذمار واجهة التاريخ ترمقها
عين الزمان بإكبار وإجلال
في أرضها وقف التاريخ منبهرا
يروي حكايات أذواء وأقيال

ويتساءل الشاعر على لسان أحد أبناء ذمار:

ذمار، ماذا جرى هل أنت عاشقة
أهذه لهفة في صدرك الغالي؟!
أهذه زفرة المشتاق أرسلها
فؤادك المبتلى في شكل زلزال؟!

ويقول موغلا في تصوير مأساة ذمار:

بالأمس ألمح فيها زهو مملكة
واليوم ألمح فيها ذل أطلال
بالأمس تنشد للآفاق أغنية
واليوم تقرأ نعي الأهل والآل
بالأمس ترفع للآفاق جبهتها
واليوم تمضغها أشداق زلزال
ذمار، مازالت المأساة تلجمني
ماذا أقول وهل تجديك أقوالي؟!

هكذا يكون الفن الشعري، يحمل معه المتذوق إلى عالم آخر، يرسم أمامه صورا ملونة بألوان العاطفة الشعرية الصادقة.

في قصيدة بوح وشكوى التي أشار الشاعر إلى أنها كتبت في ١٤٠١هـ، في الرياض، يتجه الشاعر إلى ربه فيقول:

إلهي من سناك قبست نوري
وأنبت المحبة في ضميري
فقيرا جئت بابك يا إلهي
ولست إلى عبادك بالفقير
غني عنهم بيقين قلبي
وأطمع منك في الفضل الكبير
إذا لم أستعن بك يا إلهي
فمن عوني سواك ومن مجيري؟!

الديوان روضة شعرية بديعة، وهو واحد من دواوين أخرى للشاعر فيها من الفن الشعري الإسلامي ما يصلح أن يكون نقشا على واجهة الأدب الإسلامي في هذا العصر■

إلى الأخ بالرحاب

محمد صالح الخولاني
اليمن

أتاك من أسفاره مجتهدا
يخطو بأثقال تروع المدى
يا مجري السحب ثقالا إلى
صحراء جرداء طواها الردى
ويا مسيل النبع من صخره
ويا منادىً ذاب فيه الندا
يا محيي الموت ويا واصلا
للورد في قطر الندا موعدا
يا واهب الدنيا سنا روحها
كي لا يضيع النور فيها سدى
يا فالق الإصباح تجلو به
دنيا تعاليت بها مفردا
رقرق سنا نورك في روحه
حتى يرى في الليل نور الهدى